

"لأنَّ فوقَ العالی عالیاً..

والأعلى فوقهما"

**بقلم: أدما حبيبي**

صورٌ عديدة رأيتها مؤخراً تركتُ أثراً عميقاً في نفسي. رحت أطويها واحدة بعد الأخرى، لكنّها هيهات أن تُطوى من صفحة ذاكرتي أنا. أجل فالصورة الأولى التي رأيتها كانت لفتاة في ربيع عمرها، فاتتة المنظر. أمّا عيناها فكانتا ملانّتين بالدموع وعلى خديّها تتدحرج العبراتُ وكأنّها لآلئ لشدّة لمعانها وشفافيتها. أجل لآلئ لكن في زمن لم تعد للآلئ الطبيعية قيمة تُذكر. اغرورقت عيناها أنا أيضاً بالدموع وأحسستُ وكأنّ الفتاة تنظر إلي وكلّها رجاء بأن أنقذها ممّا هي فيه من ألم ومعاناة. قلت لنفسي: ما هذه النظرة الأليمة التي تحرق أعماق النفس كالسيف. فمها مفتوح وهي تبكي مأساتها، مأساة شعبها في فلسطين ، مأساة أهلها وإخوتها وإخوانها. أما الكلمات التي دوّنتها الصحيفة ناشرة هذه الصورة فهي: **دعوا الأطفال يعيشون...**

فتاة في عمر الزهور تبكي مأساة الحرب الشعواء التي تعيشها. تبكي الأطفال الذين يموتون قتلاً وتعذيباً في كل يوم. وتبكي حاضرها الذي لم يتطور عن ماضيها التليد ولا قيداً أنملة. معاناة وأية معاناة حين ترى بأم عينيها الأطفال يسقطون واحداً تلو الآخر. فتاة فتية ذات أربعة عشر ربيعاً هي واحدة من كثيرات يتعرّضن لكل هذه المآسي . ترى ماذا سيحمل لها المستقبل؟ عيناها تبكي مستقبلاً لا يمكنها أن تتخيّله أفضل مما أتى أو أحسن مما انقضى. صورة وجه يبكي الطفولة البريئة لكنها المعذّبة والتي ما تنفك تعصف بها موجات القهر والظلم. فأنى لهذه الصورة أن تُحى من صفحة ذاكرتي ؟ هيهات! ثم ماذا أقول؟ أ أطوي هذه الصفحة؟ وإن فعلتُ فماذا سأرى بعدها؟ أعود فأرى صفحة أخرى من صفحات الشعوب المعذّبة. صورة تحمل عنواناً آخر لكنه في نفس المنحى ليقول: **"جريمة القرن على أرض العراق"** ... تحمل هذه الصورة صاروخاً كتبت عليه بالإنكليزية جملةً اقشعراً لها بدني وتصبّب بفعلها العرق من وجهي إذ تقول: **هذه هي هديتنا لكم ... من Rick.** ونقلت الصورة تحتها تقريراً لأحد أشهر الأطباء الألمان وهو يصف ما يعانیه أطفال العراق من أمراض سرطانية وعيوب خلّقية تنتسب في وفاة ما يقرب من ٧٥٠٠ طفل شهرياً. وصف الطبيب هذه المعاناة بأنّها كارثة جينية لم تحدث في العالم من قبل ولا علاقة لها بسوء التغذية. وأكد البروفسور يوهانس نشييلة كبير الجراحين في جامعة بينا خلال الزيارة التي قام بها مؤخراً إلى مستشفى بمدينة البصرة في جنوب العراق وشاهد فيها عشرات الأطفال المشوهين خلقياً، أن هناك علاقة واضحة تماماً بين ازدياد حالات التشوه

الخطي وبين استخدام الأسلحة المخصّبة باليورانيوم المشع خلال الحرب. وأكدت مجلة "توكوس" في تغطيتها لزيارة الطبيب الألماني للعراق أن الإصابة بسرطان الدم في المدينة العراقية قد زادت بنسبة ٣٥ بالمئة عن فترة ما قبل الحرب. مشيرة إلى أنه لا توجد أدوية للعلاج الكيماوي نظراً للحظر الذي تفرضه الأمم المتحدة. وإنّ هناك أكثر من عشرين طفلاً يولدون مشوّهين بين كل ١٠٠٠ مولود. في حين أنّ المعدل الدولي يصل إلى طفل واحد مشوّه بين كل عشرة آلاف مولود.

هذه صورة أخرى طويّتها، لكن هيهات أن تمحي من صفحة ذاكرتي. فمآسي الحياة تحفر أثلاماً عميقة في النفس أنى لها أن تتسى.

وهنا ما كان مني إلا أن تذكّرتُ حكيم الجامعة الملك والنبى سليمان الذي يوم رأى بأم عينيه المظالم تجري في مجتمع الإنسان دونّ بوحى من الروح القدس هذه الكلمات: "وأيضاً رأيت تحت الشمس موضع الحق هناك الظلم. وموضع العدل هناك الجور... ثم رجعت ورأيت كل المظالم التي تجرى تحت الشمس . فهوذا دموع المظلومين ولا معز لهم. ومن يد ظالمهم قهر... إن رأيت ظلم الفقير ونزع الحق والعدل من البلاد فلا ترتع من الأمر. لأنّ فوق العالى عالياً، يلاحظ والأعلى فوقهما...." (جامعة ٣: ١٦ ، ٤: ١ و ٨)

يتأمل سليمان الحكيم في العديد من المتناقضات الواضحة فيما يتعلق بسيطرة الله على العالم. فهناك الظلم حيث يجب أن يوجد العدل. و ليس منّ يساعد المظلومين أو يعزّيهم. والسؤال دائماً الذي نفوه فيه هو: لماذا؟ لماذا يسمح الله بهذه المآسي؟ لماذا يترك الله الشرير سائداً ومائداً والمظلوم مقهوراً؟ لماذا يحصل كل هذا في عالم البشر؟

ماذا تُرانا نقول عن أيوب؟ أجل أيوب الذي كان تقياً يخاف الله؟ إلام آلت حاله حين قال له الرسول بأنّه فقد أولاده العشرة؟ هل نستطيع يا ترى أن نتصور مشاعره آنذاك؟ لم ينته الأمر عند هذا الحد من فقدان لکنه عاد ففقد كل ما كان يملك وفي الأخير ضُرب بالقرح. كيف له أن يفسر ما يحصل له من مصائب ومآسي واحدة تلو الأخرى. أما الكتاب فيدوّن بأنه في كل هذا لم يخطئ أيوب بل قال : الخير نقبل من عند الرب والشر لا نقبل؟

متناقضات الحياة كثيرة فكيف نستطيع الحفاظ على إيماننا ونحن نراها تحدث أمام أعيننا؟ متناقضات الحياة مؤلمة ، فكيف يمكننا أن نتعايش معها؟ هل هذه الحياة هي كل ما هناك يا ترى؟ بالطبع كلا. ولكن حتى في هذه الحياة يجب ألا نحكم على الله. لأننا لا نعرف كل شيء. فخطة الله لنا هي أن نحيا معه إلى الأبد. فلذلك علينا أن نعيش وأماننا القيم الأبدية، متيقنين أنّ كل المتناقضات ستنتجلي يوماً ما بمعرفة الخالق نفسه.

والسؤال هل يمكن أن تكون خطة الله كاملة وهناك كل هذا الجور والظلم في العالم؟ "ألا يمكن لهذا الليل الطويل أن ينجلي؟" خلص النبي سليمان من ذلك إلى القول بأن الله لا يتجاهل الظالم ولكنه سيقضي عليه في وقته المعين. "لأن فوق العالي عاليا والأعلى فوقهما." فليس العالي هو المسيطر على العالم أبداً بل الأعلى من هذا وذاك. الأعلى من الظالم والمظلوم . وحده القائم والمسيطر على الكون . هو المسيطر بكل ما في الكلمة من معنى. حتى ولو لم ندرك نحن كيف. أو حتى لو بقينا نتساءل كيف؟

ماذا يقول النبي داود في هذا الصدد؟ يقول: "لا تغر من الأشرار ولا تحسد عمال الإثم . فإنهم مثل الحشيش سريعا يُقطعون ومثل العشب الأخضر يذبلون.... لأن عاملي الشر يُقطعون والذين ينتظرون الرب هم يرثون الأرض. بعد قليل لا يكون الشرير . تطلع في مكانه فلا يكون. أما الودعاء فيرثون الأرض..." (مزمو ٣٧)

قال أحدهم: "الله ألطف بكثير من أن يفعل الشر وأحكم بكثير من أن يرتكب خطأ وهو أعمق بكثير من أن يفسر لنا نفسه." وعليه أسمع كلمات الرسول بولس المسوقة بالروح القدس في رسالته إلى أهل رومية تقول: "يا لعمق غنى الله وحكمته ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الاستقصاء. لأن من عرف فكر الرب أو من صار له مشيراً." (رومية ١١ : ٣٣-٣٤)

المفتاح إذن هو أن نسلّم بحقيقة أن الله مسيطر ومهما كانت الظروف والأحوال. إذ إننا لا نستطيع إدراك أحكامه وتتبع طرقه. لكننا نعلم شيئاً واحداً وهو بأن الله لا ولن يترك المظالم دون عقاب. ويجب ألا ننسى أن فوق العالي عاليا والأعلى فوقهما.